قيم التضامن والتكافل في الأدب الجزائري

the solidarity values and the collaboration in the Algerian literature

د . عزّ الدِّين جلاوجي .
(جامعة محمد البشير الإبراهيمي
برج بوعريريج / الجزائر)

الملخَّص :

يتتبع هذا المقال حضور قيم التضامن والتكافل في الأدب الجزائري، شعرا ونثرا، مع الوطن/ الذات "الجزائر" ومع الذوات الكبيرة والكبرى فالأكبر، المغرب العربي، الوطن العربي وفلسطين بالخصوص، ومع الإنسانية جمعاء.

كلمات مفتاحية: **قيم التضامن، الأدب الجزائري، الشعر الجزائري، فلسطين، المغرب العربي، الوطن العربي، الإنسانية.**

Summary:

This article follows the present of solidarity values and the collaboration in the Algerian literature: poetry and prose with the self nation " Algeria" and with the big selves, great to the greatest ones: the Arab Maghreb, the Arab world, particularly Palestine and with all humanity.

Key words: solidarity values, the Algerian literature, the Algeria poetry, Palestine, the Arab Magheb, the Arab world, humanity

مقدمة:

فطر الإنسان على حدين، أحدهما يشحذه للشر وآخر للخير، ليمارس دوما فعل الصراع الذاتي الداخلي والخارجي، البعيد والقريب، رغبا ورهبا، فيتغلب ذا الحد مرة، ويتغلب ذاك مرات عديدة، وينشأ من كل ذلك أنا وآخر وبقدر من ينشأ بين هذا وذاك من صراع وتناحر قد يصل حد العنف أحيانا، فإنه يكون ضروريا أيضا إذ لا تقوم الحياة إلا بمثل هذا التدافع حسب المصطلح القرآني الذي بقدر ما يحث على الالتفات إلى الأنا بقدر ما لا يقصي الآخر ولا يظلمه.

في هذه المقالة ارتأيت أن أركز على حضور ذلك في الأدب الجزائري، مقسما ذلك إلى إظهار قيم التكافل والتضامن مع الذات الصغرى قاصدا بها "الوطن الصغير"، ثم انتقلت إلى الحديث التضامن مع الذات الكبرى وقصدت بها القسم الغربي من جسد العروبة، ثم تطرقت إلى التضامن مع الذات الأكبر وهي ذات العروبة من المحيط إلى الخليج، مركزا على فلسطين جرح العروبة الغائر، وخلصت إلى التضامن مع الذات الإنسانية أينما كانت.

وحصرا لمجال البحث ركزت بحثي نماذج من كتابات شاعر الثورة الجزائرية "مفدي زكرياء" وشيخ الحركة الإصلاحية "محمد البشير الإبراهيمي"، إضافة إلى الشاعرين محمد العيد ومبارك جلواح، وإمام الحركة الإصلاحية الشيخ عبد الحميد بن باديس.

قيم التكافل مع الذات الصغرى

لعلي لن أكون مبالغا إذا قلت إن الجزائري هو من أكثر الناس حبا لوطنه وتشبثا به وتضحية في سبيله ورث ذلك من أسلافه أولا وهم الذين كانوا يتعصبون للمضارب فلا يرون دونها عزا

ولي وطن آليت ألا أبيعه وأن لا أرى غيري له الدهر مالكا

وطبعته الإحن التي تعاورت أرضه وتنازعتها من كل حدب وصوب فلم يكن يخرج من صد طامع أشر حتى يستعد لمواجهة طامع أشر، وهو مع ذلك لم يضع السلاح لحظة بل كان يسلمه الأجداد للأحفاد ولم تكن تندمل له جراح حتى تنكأ جراح.

عاش ذلك بمشاعره وجوارحه وسلوكه متفاعلا مع قيمه وروح تراثه وثقافته محافظا على عاداته وتقاليده ولغته لا يبغي عنها حولا لدرجة أنه كان يرى التعامل مع الاستعمار كفرا وليس أكبر من الكفر جريمة، فقاطع مدارسه وثقافته ومظاهر حياته كاللباس والعادات والتقاليد، ورضي أن يعيش بعيدا على القمم وفي الأغوار والفيافي القاحلة على أن يذوب في الآخر وهذا من أجمل ما في ثقافتنا من تكافل مع الذات وتضامن معها.

وصدق موروثنا الشعبي حين أنشد:

قِيزْلُبّارْ ولا قمح المنّه عِزْ فَالنارْ ولا ذلْ فَالجنّه[1]

1- قيزلبار: نوع من البصل الصغير جدا طعمه حلو ينبت في البور "لبار" يقلعه القريون ويأكلون حبته، المنة: المَنُّ.

كما ظل مجتمعنا متضامنا متكافلا من خلال ممارسات أخر كالتماسك العائلي والقبلي والديني والمذهبي وكالتعاون في السراء والضراء وهذا ما يسمى عندنا شعبيا ب "التويزة" و "لوزيعة"[2] وما إلى ذلك.

هذا البعد كان حاضرا لدى رجال الحركة الإصلاحية الذين أعلنوا منذ البداية حين خرجوا للناس أن لا هدف لهم إلا تحرير هذا الوطن بكل قيمه وعلى رأسها قيم التضامن والتكافل مع المجتمع والهوية والوطن والقارئ العربي يعرف جيدا مواقف رواد الإصلاح خاصة عند الرئيس ابن باديس والإبراهيمي.

أما في الأدب فقد ظل الشاعر الجزائري مفدي زكرياء يرى وطنه حجة الله في الكون وتجليه وجنته التي وعد يقول:

جزائر يامطلع المعجزات وياحجـــة الله في الكائنات
ويابسمة الرب في أرضه ويا وجهه الضاحك القسمات[3]

ويقول:

جزائر أنت عروس الدنا ومنك استمد الصـــباح السنا
وأنت الجنان الذي وعدوا وإن شغلـــونا بطيب المنى[4]

ويقول الإبراهيمي في عيون البصائر مكبرا عظمة وطنه "...إنه يعتقد أن في كل جزيرة قطعة من الحسن وفيك الحسن جميعه، لذلك كن مفردات وكنت جمعا، فإذا قالوا الجزائر الخالدات رجعنا فيك إلى توحيد الصفة، وقلنا الجزائر الخالد وليس بمستنكر أن تجمع الجزائر كلها في واحدة.."[5]

ويتذكر فيها مرابع الطفولة ومراتع الصبا مهما تناءى به المكان وشحط به التجوال يقول مفدي زكرياء:

ألا خبريـــني هل منـارك لم يزل يشـــــع على دربي فيغـمره بشـرا؟
وهل لم تزل في الحقل سنبلتي التي غرست؟ وهل في الحقل زنبقتي الحمرا؟[6]

بل ولا يبغي الرحيل عنه ولا الابتعاد عن حماه، فإذا اضطرته الظروف القاسية لذلك بقي حبه يانعا في قلبه يقول مبارك جلواح وهو شاعر رومانسي رحل في شبابه إلى المغرب وفي آخر حياته قتلته فرنسا شهيدا إغراقا في نهر السين:

2- التويزة: تعاون القوم وتلاحمهم في شؤون حياتهم كالحرث والحصاد والبناء للظروف الصعبة التي كانوا يمرون بها من احتلال وفقر، واللفظة من العربية وتعني: تأز الجرح: التحم وشفي. القوم في الحرب أو غيرها: قرب بعضهم من بعضهم الآخر.
والوزيعة: الأنعام تذبح في القبيلة وتوزع أقساطا متساوية تنال كل أسرة قسطا.

3- مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987، ص 19.

4 - نفسه، ص 22.

5 - محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ط 1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1978، ص 484.

6 - مفدي زكرياء، اللهب المقدس، موفم للنشر، الجزائر، 2007، ص 319.

آن عنك الرحيل رغم مرادي ماعسى ينفع البكاء بلادي
ضاق بي في دارك كل مقام وسبيل سوى سبيل البعاد
لست ما عشت ساليا لهواها وهوى من بها من الآساد [7]

ثم هو ليس أحب لديه من أن يموت في سبيل وطنه، يقول محمد العيد آل خليفة.

أقسمت لو خيرتني في مصرعي ما اخترت إلا في سبيلك مصرعي[8]

وإذا جاء إلى ترتيب الأولويات في أركان الوطنية رأى أن العربية أساس قوامه واستمراره وعبقريته وتماسكه أمام عواصف الأعداء يقول الإبراهيمي "...هذه العروبة الأصيلة العريقة في هذا الوطن هي التي صيرته وطنا واحدا لم تفرقه إلا السياسة، سياسة الخلاف في عصوره الوسطى وسياسة الاستعمار في عهده الأخير، وهذه العروبة هي مسلكه على كثرة المفرقات، وهي ملاكه على وفرة العوامل الهادمة، وهي رباطه الذي لا ينفصم ببقية أجزاء العروبة في الشرق، وهي السبب في كل ما يأخذ من تلك الأجزاء، وما يعطيها فينصرها في الملمات ويتقاضاها النصر في المهمات."[9]

وعلى هذه الأسس التي ذكرنا ظلت المقاومات متأججة دالة على تضامن الجزائريين وتكافلهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، وكانت مقاومة الأمير عبد القادر التي استمرت ثمانية عشر عاما ومقاومة بوعمامة أربعة وعشرين عاما، و مقاومات أحمد باي ولالا فاطمة نسومر والمقراني، وأحداث الثامن ماي التي ذهب ضحيتها خمس وأربعون ألف شهيد.

أما الثورة التحريرية المباركة التي اندلعت في فاتح نوفمبر 1954 واستمرت سبع سنوات ونصف السنة وحققت النصر المؤزر على الاستدمار الفرنسي فدلت بصدق على تكافل أبناء الشعب الجزائري وتضامنهم وتلاحمهم من أجل استرداد الحرية المسلوبة.

وقد سجلت هذه الثورة وهذا التلاحم في صفحات خالدة من الأدب الجزائري شعرا ونثرا وكانت ثلاثية محمد ديب المشهورة، وكانت إلياذة مفدي زكرياء تتويجا لهذا الأمر.. ومازالت تغري الأدباء والكتاب والباحثين جزائريين وعربا بالكتابة عنها وعن تلاحم شعبها وتكافله.

التكافل مع الذات الكبيرة

رغم شراسة الاستعمار الذي أنشب أظفاره كالوحش الكاسر في جسد المغرب العربي، ورغم محاولات التفريق والتشتيت ابتداء من رسم حدود وهمية إلى محاولات بث الضغينة والحقد إلا أن أبناء المغرب الكبير ظلوا جسدا واحدا لا صدع فيه ولا أمت ولا اعوجاج يتكافلون في السراء والضراء، والتاريخ يشهد أن حركات المقاومة كانت جميعا، حتى إذا ما افتك الإخوان حريتهم واستبقى الاستعمار الجزائر تداعى الباقون بالتضحية والفداء فقدموا أرواحهم وأموالهم،

7- عبد الله ركيبي، مبارك جلواح بين التمرد والانتحار، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر. 1886، ص 163.

8 - محمد العيد آل خليفة، ديوان محمد العيد آل خليفة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979، ص 120.

9 - محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 77.

وفتحوا بيوتهم في تونس والمغرب وليبيا ولم تكتمل فرحتهم حتى عاد للجسد الواحد العضو المتبقي.

لقد أدرك المثقفون الجزائريون وعلى رأسهم رجال حركة الإصلاح هذا الأمر ونبهوا إلى المكائد التي تحاك ضد هذا الجسد الواحد يقول الإبراهيمي: "وهذا الشمال قد أصبح أهله كأصحاب الشمال في سموم من الاستعمار وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم، أفسد الاستعمار أخلاقهم ووهن عزائمهم وفرق بين أجزائهم لئلا يجتمعوا، وقطع الصلة بينهم وبين ماضيهم لئلا يدكروا، وضرب بينهم وبين العلم بسور ليس له باب، ومكن فيهم للضعف والانحلال بما زين لهم من سوء الأعمال، وبما غزا به نفوسهم وعواطفهم من أفكار ومغريات"[10]

وظل مفدي زكريا ابنا مخلصا للمغرب الكبير يتأوه لهمومه ويفرح لانتصاراته ويسجل مفاخره وأمجاده، بل لقد عاش الشاعر ذلك واقعا، فقد ولد ونشأ بالجزائر، وأكمل دراسته بتونس وبها سماه أحد أستاذته مفدي، جاهد بالجزائر وبها ذاق مرارات السجن والتعذيب، فر من السجن ليحتضنه المغرب الأقصى، وبه استقر وعمل سنوات طويلة، وشاء الله أن يطير إلى تونس في زيارة عادية. وبها قضى شهيد العلم والفن والعروبة، والمتصفح لديوانه اللهب المقدس يجد جزء كبيرا منه مخصصا لهذه القضية الكبرى ناهيك عما تناثر هنا وهناك في دواوينه وقصائده الأخر يقول مفدي:

وفي المغرب الجبار ناشدت وحدة سبقت بها في فجر عمري أقراني
وأحببت أوطاني رضيـعا، ولم أزل أغني مع الدنيا بأمجاد أوطاني [11]

هكذا بمطلق لفظة أوطاني، لا فرق بين هذا وذاك.

ويسجل التاريخ تلاحم أبناء المغرب العربي وهو يصنعون ملحمة النصر الكبرى، وتخضب دماؤهم وجه هذه الأرض من غير حدود ولا أسلاك شائكة، وساقية سيدي يوسف بين الجزائر وتونس شاهد حي على ذلك.

ومازال ماحلم به مفدي والإبراهيمي والمئات من مثقفي المغرب الكبير، بعيد المنال ليس على مستوى القلوب والمشاعر، ولكن على مستوى الممارسات السياسية التي نرجوا أن نراها مجسدة على أرض الواقع.

قيم التكافل مع الذات الكبرى

لقد ظل الجزائريون لا يرون ضيرا في التنقل عبر أعضاء جسد العروبة الواحد دارسين ومدرسين، وفاعلين في الحركات الوطنية والسياسية والثقافية جميعا، وهم على قناعة تامة أن ذلك هو من واجبات الأخ نحو أخيه، لقد ولد ابن رشيق بالجزائر وبها نشأ وتعلم ولكنه استوى

10- نفسه، ص 532

11- مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص 218

على عرش العلم والمعرفة في تونس حتى عرف بابن رشيق القيرواني.. وتوفي بصقلية وقد كانت منطقة عربية إسلامية..

وفي المكان ذاته الذي ولد ابن رشيق ولد بكر بن حماد، وبه نشأ ودرس، ثم رحل عبر تونس ومصر إلى المشرق العربي واستقر في بغداد زمن المعتصم ومدحه وهناك لقي دعبلا الخزاعي وأبا تمام وعليا بن الجهم والحسن البصري، وبقي أربعين سنة ليعود إلى تونس، ومنها إلى مسقط رأسه بالجنوب الجزائري حيث نكب وزهد ومات.

والأمر ذاته مع صاحب "نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب" تهب نسمته بتلمسان غرب الجزائر، وتشرق شمسه بالشام.

ومثل ذلك ابن باديس والإبراهيمي ومفدي والطاهر الجزائري والأمير عبد القادر ومحمد المبارك وغيرهم عشرات، بل مئات انزرعوا ومازلوا ينزرعون وسيظلون في حقل الوطن العربي الكبير أزهارا فواحة وطيورا صداحة.

ومن هنا كانت قيم التضامن والتكافل العربي، عبرت عنه الثقافة الجزائرية سلوكا وممارسة وفعلا، قبل التعبير عنها قولا وإبداعا.

وقد تجلى ذلك أما على مستوى الكتابة عموما والإبداع خصوصا، إذ لم يمنع الاستعمار الفرنسي الشرس الجزائري من أن يتطلع لوطنه الكبير ولأبناء وطنه الكبير، فهم عزته وفخره، وهم خير البشر اختارهم الله دون غيرهم من بني الإنسانية لينشروا قيم العدل والحرية والعلم يقول الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس:

المجـــد لله ثم المجـد للعـرب من أنجبوا لبني الإنسان خير نبي
ونشـروا ملة في النـاس عادلة لا ظلم فيها على دين ولا نسـب
وبذلوا العلم مجـــانا لطـــالبه فنـال رغباه ذو فقـر وذو نسب
وحرروا العقل من جهل ومن وهم وحرروا الدين من غش ومن كذب [12]

ولا تكافل ولا تلاحم بين أبناء العرب، أبناء الوطن الواحد إلا بالعروبة يقول الإبراهيمي "...فالعالم العربي بهذه العروبة المكينة كالجسد الواحد، إذا ألم بجزء من أجزائه أو نزلت به مصيبة تداعت له سائر الأجزاء بالنصرة والغوث.."[13]

فإذا اختلفت الأديان والعقائد بين أبناء العروبة، فإن عقيدة العروبة كافية لأن تجمع بين أبناء العروبة، وهذا ما أكده الإبراهيمي في أكثر من مقالة، خاصة في الرد على الاستعمار الذي أرجع لحمة العروبة إلى العصبية الدينية يقول: "ومن آيات بغض العروبة ونفوره منها أنه لا يريد أن يعترف بأثر من آثارها الطبيعية من تراحم وتعاطف.. وإنما يرده إلى شيء آخر تنكره روح هذا العصر المنافق، وهو التعصب الديني، كل ذلك ليبعد عن خواطره ولو بالتوهم خيال العروبة مجتمعة الشمل متصلة الأنساب موصولة الرحم معلنة لعروبة إفريقيا وتعمي الأهواء عينيه

12 - ابن باديس، ابن باديس حياته وآثاره ج3، جمع وتحقيق عمار طالبي، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1968، ص 573

13 - محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 529

على حقيقة مجردة، وهي أن حظ العرب المسيحيين في مصر والشام من التألم لمحنة المغرب الأقصى لم تكن أقل من حظ إخوانهم المسلمين"[14]

وقد رأينا هذا ممارسة من خلال دفاع الأمير عبد القادر الجزائري عن المسيحيين في الشام، لأن لحمة العروبة لها مكانتها مهما اختلفت القناعات الدينية.

فلما كانت العروبة بهذا البعد وبهذه القيمة والتأثير ظل الجزائريون حريصين على بقائها واستمرارها وانتصارها والتنبيه إلى ما يعد لها، يقول الإبراهيمي: "وهذه الجزيرة العربية مجلى البيان والوحي... تنصب فيها أشراك الشركات، ووراء كل شرك صائد، وتتناطح فيها رؤوس الأموال، ووراء كل رأس مال رؤوس حيوانية، تفكر في الكيد، وأيد حريرية تحمل القي،د وأرجل تسعى للاحتلال والاستغلال... وهذه مصر كنانة السهام تدفع بقوة إيمانها ألوهية فرعون جديد وإنه لعال في الأرض وإنه لمن المفسدين"[15]

بل وظلوا يعتقدون جازمين أن لا عز ولا كرامة للجزائر، إلا بهذا البعد الذي ظلت تحافظ عليه وتدافع عنه يقول مفدي زكرياء:

واستدرجوه، فدبروا إدمـــاجه فأبت عروبتـــــه له أن يبلعا

وتعمدوا قطع الطريق، فلم ترد أسبابه بالـــشرق أن تتقطـعا

نسب بدنيا العرب زكى غرسه ألـم فأورق دوحه وتفـــــرعا

سبب بأوتار القلـــوب عروقه إن رن هذا رن ذاك ورجـــــعا

تلك العروبة إن تثر أعصابها وهن الزمان حيالها وتضعــضعا

الضاد في الأجيال خلد مجدها والجرح وحد في هواها المنـــزعا [16]

ومازالت أصواتنا في الجزائر ترتفع دائما وأبدا منادية بتحقيق الوحدة الكبرى بين أجزاء الوطن الواحد الذي تآكلته الخلافات والصراعات والأهواء.

التكافل مع العضو المغتصب

أما فلسطين فهي الجرح الأكبر في جسد العروبة والذي مازال للأسف الشديد ينكأ إلى اليوم، ولقد أحس الشعب الجزائري بألم هذا الجرح فاندفع يذود عن الحمى بالروح والنفيس، حتى وهو تحت نير الاستعمار وبطشه ومازال على العهد إلى يوم الناس هذا، والمتتبع للثقافة ابتداء مما كتبه رجال الإصلاح الذين كانوا لا يرون حياة ولا قيمة للعرب عموما والجزائريين خصوصا إلا بتحرر فلسطين، يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، وقد كتب عشرات المقالات نشرت كلها قبل الثورة التحريرية عن قضية فلسطين، قضية العرب الكبرى، مما يستحق بحثا مطولا: " ياعيد بأية حال عدت؟... وهذه فلسطين... قد اجتمع على اهتضامها عتو الأقوياء وكيد

14 - نفسه، ص479

15 - نفسه، ص 524

16 - مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص 59

الضعفاء" إلى أن يقول....: "أيها العرب لاعيد حتى تنفذوا في صهيون الوعيد، وتنجزوا لفسطين المواعيد، ولا نحر، حتى تقذفوا بصهيون في البحر، أيها العرب حرام أن تنعموا وإخوانكم بؤساء، وحرام أن تطعموا وإخوانكم جياع، وحرام أن تطمئن بكم المضاجع وإخوانكم يفترشون الغبراء"[17]

ويرسم المثقفون الجزائريون طريق التحرير الذي لا يكون بالعواطف والخطب الرنانة، وإنما بالعمل، يقول مفدي زكريا عاتبا على العرب تخاذلهم، راسما الطريق الصحيح:

ناموا وفي الدار إسرائيل ترصدنا وأغمضـــوا دون إسرائيل أجفانا

دعوا العواطف فالرشاش يجهلها وسجدة السهو لا تحيي ضحايانا[18]

ويقول في قصيدة أخرى..

فلسطين في أرض الجزائر بعثها فمدوا يدا نحم المعاقل والثغـــــرا

فلا عز حتى تستقـــــل جزائرٌ ولا مجد حتى نصنع الوحدة الكبرى[19]

ويقول الإبراهيمي: "إنكم لا تردون كيدهم بقوة جامعة الدول العربية، حتى تسندوها بجامعة الشعوب العربية فحركوا في وجوههم تلك الكتلة متراصة يرهبوا ثم يذهبوا"[20]

ويقول مفدي في مقطع آخر من الإلياذة، متنبئا بمستقبل فلسطين، وأن بعثها سيكون من أرض الجزائر، وأن الدرب الذي يجب أن تسلكه هو درب المقاومة درب الثورة الجزائرية الكبرى، وفعلا أعلن عن تأسيس الدولة الفلسطينية على أرض الجزائر، وستظل الجزائر وفية لفلسطين واقفة معها في السراء والضراء، متمثلة قول زعيمها الراحل هواري بومدين "نحن مع فلسطين ظالمة أو مظلومة" يقول مفدي زكرياء:

فلسطين في أرضـــنا بعثها ومن أرضنا تزحف الحامية

ومن أرضنا نقطة الانطلاق وثورتنا حجـــــر الزاويه[21]

بل ونلمس هذا التضامن والتكافل مع القضية الفلسطينية عمليا منذ البدايات الأولى، فلقد شكل الإبراهيمي لجنة مركزية في العاصمة الجزائرية، ولجانا فرعية في غيرها، وجمع ملايين الفرنكات، حملت إلى باريس، ودفعت إلى سفير مصر أحمد عبد الخالق ثروت ليوصلها إلى الفلسطينيين، أما الإبراهيمي فقد وهب مكتبته، يقول: "أما أنا فوالذي روحي بيده لا أملك من هذه الدنيا إلا مكتبة متواضعة هي كل مايرثه الوارث عني، وإني أضعها خالصا مخلصا تحت تصرف اللجنة"[22] وقد تسلمت اللجنة المكتبة فعلا، ثم أعادتها لأن الاجتياح قد تم والتشريد قد وقع.

17 - محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 526

18- مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص 393

19 - نفسه، ص 319

20 - محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 512

21 - مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص 248

22 - نفسه، ص 248

التكافل مع الذات العامة

إن المثقف الجزائري حين يعتز بثقافته وانتمائه لا يتعصب لذلك بل ينتقل من دائرة صغيرة إلى دائرة أكبر، ولذلك نلمس عنده أيضا البعد الإنساني الكبير، إذ لا يعني أبدا التشبث بالأصالة والاحتماء بها وحمايتها قهر الآخر أو رفضه وإلغاءه وهو ينطلق في ذلك من البعد الإسلامي الذي عبر عنه القرآن الكريم بقوله: "إن في اختلاف ألوانكم وألسنتكم لآيات لقوم يعقلون"[23] ومن هذا المنطلق يقول ابن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في قصيدته المشهورة.

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب

والتي تعتبر النشيد غير الرسمي للشعب الجزائري، بعد أن يعرض لمجد العرب والعروبة، يقول داعيا للأخوة الإنسانية، هذه الأخوة التي من أوجب حقوقها التكافل والتضامن.

قومي وبنو الإنسان كلهم عشيرتي وهدى الإسلام مطلبي[24]

والأمر نفسه يؤكده الإبراهيمي الذي يرى أن الحضارة العربية بلسانها العربي، لم تتعصب لجنس ولا للون ولا لطائفة دون غيرها، وإنما كما يحدثنا التاريخ كانت بردا وسلاما على الجميع يقول: "إن العربية لم تخدم مدينة خاصة بأمة، وإنما خدمت المدنية الإنسانية العامة، مدنية الخير العام والنفع العام، ولم تخدم علما خاصا بأمة وإنما خدمت العلم المشاع بين البشر بجميع فروعه النافعة، وهي اللغة الوحيدة التي احتضنت العلم وآوته ونصرته (يقصد في القرون الوسطى)".[25]

ويضرب مثالا حيا بما وقع في شمال إفريقيا على الخصوص مبينا التمازج الأخوي الواقع بين الجنسين: "وطار منها إلى البربر قبس، لم تكن لتطيره لغة الرومان، وزاحمت البربرية على ألسنة البربر، فغلبت وبزت وسلطت سحرها على كل ذلك باختيار لا أثر فيه للجبر، واقتناع لا يد فيه للقهر، وديمقراطية لا شبح فيها للاستعمار، وكذب وفجر كل من سمى الفتح الإسلامي استعمارا، وإنما هو راحة من الهم الناصب، ورحمة من العذاب الواصب، وإنصاف للبربر من الجور الروماني البغيض، من قال إن البربر دخلوا الإسلام طوعا فقد لزمه القول بأنهم قبلوا العربية عفوا، لأنهما شيئان متلازمان حقيقة وواقعا، ومن شهد أن البربرية مازالت قائمة الذات في بعض الجهات فقد شهد للعربية بحسن الجوار، وشهد للإسلام بالعدل والإحسان"[26]

ولذلك نراه يدعو للأخوة القائمة على التضامن والتكافل التي تبلغ حد الأخوة مع التفريق بين مستوياتها، يقول في مقال له بعنوان "الشاب الجزائري كما تمثله لي الخواطر" كتبه سنة 1947: "أتمثله واسع الوجود، لا تقف أمامه الحدود، يرى كل عربي أخا له أخوة الدم، وكل مسلم أخا له أخوة الدين، وكل بشر أخا له أخوة الإنسانية، ثم يعطي لكل أخوة حقها فضلا أو عدلا."[27]

23 - نفسه، ص 248

24 ابن باديس، ابن باديس حياته وآثاره ج3، جمع وتحقيق عمار طالبي، ج 3 ص 573

25 - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 1، 1997، ص 378.

26 - محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 221

27 - نفسه، ص 586

ويفرق الشيخ الرئيس الإمام عبد الحميد بن باديس بين الشر في الإنسان المستعمر وبين الإنسانية فيه، فالعدو مهما كانت شناعة ظلمه، فإن فيه جوانب يجب أن تحترم ولا تنتهك تحت أي ذريعة، وهذا من قيمنا الأصيلة في التكافل مع الذات الإنسانية، يقول الإمام: "إننا نفرق بين الروح الإنسانية والروح الاستعمارية في كل أمة، فنحن بقدر ما نكره هذه ونقاومها، نوالي تلك ونؤيدها، لأنا نتيقن كل اليقين أن كل بلاء العالم هو من هذه، وكل خير يرجى للبشرية إنما يكون يوم تسود تلك"[28]، وفي قوله السالف دعوة لتحريك قيم الإنسانية حتى عند العدو من أجل التضامن معها خدمة للإنسان أينما كانت، لذلك نراه يقول في موقع آخر مؤكدا أن هدفه في كل ما يفعله وما يجاهد من أجله هو خدمة الإنسانية دون تفريق بين جنس وآخر: "إن خدمة الإنسانية في جميع شعوبها، والحدب عليها في جميع أوطانها، واحترامها في جميع مظاهر تفكيرها ونزعاتها، هو ما نقصده ونرمي إليه، ونعمل على تربيتنا وتربية من إلينا عليه"[29]، ومن هذا المنطلق يتوجه بالنصيحة إلى كل جزائري داعيا إياه إلى نبذ التعصب والتضامن مع الإنسانية كيفما كانت يقول: "احذر من التعصب الجنسي الممقوت، فإنه أكبر علامة من علامات الهمجية والانحطاط، كن أخا إنسانيا لكل جنس من أجناس البشر".[30]

ومما تقدم فليس هناك شك في أن الثقافة الجزائرية أدبا وإصلاحا كانت تدعو لتضامن الإنسانية مهما تباعدت ألسنا وعقائد وشيعا وألوانا.

خاتمة

وخاتمة القول هي أن قيم التضامن والتكافل كانت حاضرة بقوة في الثقافة العربية بالجزائر، سواء على مستوى آراء العلماء والمصلحين أو على مستوى الأدباء والشعراء، وقد انطلقوا في فهم ذلك من موروثهم القومي والديني أي من العروبة والإسلام.

ولقد تجسدت قيم هذا التضامن في سلوكهم العام والخاص وفي ما أبدعوا وكتبوا شعرا ونثرا، بل ولقد كان ذلك هاجسا أكبر لهم شغلهم عن أغراض الكتابة الأخرى لدرجة أنك لا تكاد تجد في الأدب الجزائري اعتناء بالكتابة الذانية إلا ماندر.

اهتمت الثقافة الجزائرية بقضايا الوطن والأمة الكبرى وقدمتها على غيرها، وانشغل المصلحون والأدباء والكتاب والشعراء بلحمة أبناء الوطن الجزائر، ثم بأبناء المغرب العربي، ثم أبناء الوطن العربي الكبير، مركزين على القضية الجوهرية قضية فلسطين، دون أن ينسوا قضايا الإنسانية الكبرى، والدعوة إلى وجوب التضامن والتكافل معها.

وليس الأمر بدعا على المثقف الجزائري، وقد اغترفه من عروبته وإسلامه، لقد عرف الإنسان العربي قيم الخير في مجتمعه قبل الإسلام، فكان مضرب الأمثال في مكارم الأخلاق، كالشجاعة والكرم والإباء والاعتداد بالنفس، وحماية المقومات العربية من كل ما يزري بها ويحط من شأنها.

28 - عمار طالبي ابن باديس حياته وآثاره، ج3، ص 406

29 - نفسه ص 234

30 - نفسه ص 179

وبزغ نور الإسلام على العرب، فأرشد فهم ما كان عندهم من قيم الأخلاق ونماها في نفوسهم، وحثهم على الاتصاف بها ونشرها بين الناس، وعلى رأسها جميعا قيم التكافل والتضامن، كيفما كانت درجتها ومنزلتها، ويكفي أن نستدل بقوله تعالي: "ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا"[31]، وقوله: "إنما المؤمنون إخوة"[32]، وقوله: "واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا"[33]، وفي الآيات دعوة للتكافل الإنساني أولا، والتكافل الإسلامي ثانيا.. ولست أريد الخوض في هذا القاموس المحيط، لاستحالة الإحاطة به أولا، ولأنه ليس هدفنا في هذه العجالة التي عرضت فيها لهذه القيم، ولكن من خلال الثقافة الإصلاحية والأدبية بالجزائر.

مراجع البحث:

1- القرآن الكريم

2- ابن باديس، ابن باديس حياته وآثاره ج3، جمع وتحقيق عمار طالبي، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1968.

3- عبد الله ركيبي، مبارك جلواح بين التمرد والانتحار، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر. 1886.

4- محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 1، 1997.

6- محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ط 1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، .1978

7- محمد العيد آل خليفة، ديوان محمد العيد آل خليفة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979.

8- مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987.

9- مفدي زكرياء، اللهب المقدس، موفم للنشر، الجزائر، 2007.

31 - سورة الحجرات، آية 13.

32 - سورة الحجرات، آية 10.

33 - سورة أل عمران، آية 63.